

**التأويل التداولي في كتاب سيبويه**  
**د. محروس السيد بريك**  
**قسم النحو والصرف والعروض**  
**كلية دار العلوم - جامعة القاهرة**

**\* مدخل:**

تستلهم (التداولية اللسانية linguistic pragmatics) وجودها من البحوث المتصلة بفلسفة اللغة، وما يتصل منها بتحليل الحوار على وجه الخصوص. وتتسب إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles Morris وهي إحدى مكونات (علم العلامات أو علم الرموز اللغوية semiotics)، والذي يتكون من (1):

1- المكون النحوي syntax (ويشمل الجوانب الصوتية والصرفية).

2- المكون الدلالي semantics.

3- المكون التداولي pragmatics.

ومن أخص مباحث التداولية اللسانية linguistic pragmatics البحث في كيفية وصول المخاطب إلى المعنى الضمني الذي يقصده المتكلم، وتجاوزه المعنى السطحيّ المباشر للكلام المنطوق؛ فالتداولية تتعامل مع الوظيفة التواصلية للغة بين المتكلم والمخاطب، وليس مع الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية في حالة التكلم المنفرد (حالة التعبير عما يجيش بالنفوس من مشاعر وأحاسيس؛ دون إرادة توجيه الكلام إلى مخاطب معين).

فعلى المستوى التداولي لا بد من وجود أربعة أركان:

- متكلم.
  - ومخاطب.
  - وكلام منطوق؛ من جملة أو عبارة أو كلمة -أي من جملة تامة أو محذوف أحد أركانها- تحمل معنيين؛ معنى لغويا مباشرا غير مراد، ومعنى آخر غير مباشر يقصده المتكلم.
  - وسياق يصل من خلاله المخاطب إلى قصد المتكلم.
- فالتداوليون يرون أنه -لمعرفة دلالات الكلام المنطوق- لابد أن نرجع إلى "ما يمكنه وينويه المتكلمون من مقاصد معقدة موجهة نحو مستمعهم؛ فالدلالة الخاصة بالألفاظ والعبارات تتعلق -من دون شك- بالقواعد والاتفاقات المتواضع عليها تعلقا كبيرا، غير أن الطبيعة العامة لمثل هذه القواعد والاتفاقات لا يمكن أن تفهم في آخر الأمر إلا بالرجوع إلى مصطلح (قصديّة التواصل)"(2).
- إن جلاء القصد الاتصالي للمتكلم communicative intention يعتمد على مجموعة من المعايير، منها: الصدق (مطابقة الكلام للواقع)، والإفادة، والترابط، والوضوح، والملاءمة(3). فالمتكلم يقصد ما ينطق به " ليقدم بعض التأثير في المستمعين من خلال وسائل الإقناع بهذا القصد"(4).
- فإذا لم يكن قصد المتكلم واضحا كلياً أو جزئياً - وذلك بفقد معيار أو أكثر من المعايير السابقة - فعندئذ يلجأ المخاطب إلى (التأويل التداولي pragmatically interpretation)، مستعيناً بالسياق بشقيه.
- ويتحقق التأويل التداولي بمجموعة من الوسائل؛ منها:

1. التكميل completion، بمعلومات مفهومة من السياق بشقيه المقالي أو المقامي.
  2. التوسيع expansion، عن طريق المعرفة المسبقة أو الافتراض المسبق، أو عن طريق معلومات مفهومة من السياق المقامي.
  3. التضمين التقليدي conventional implicature.
  4. التأويل المجازي metaphors, and other kinds of figurative utterances.
  5. التخطئة، وذلك في حالة الإحالة (باصطلاح سيبويه).
- إن تلك الوسائل متناثرة في كتب التداولية عند التداوليين الغربيين، وغرض البحث هو التعريف بها، وجمعها في إطار واحد يجعل منها هيكلًا نظريًا واضح المعالم، ومقارنته بما جاء عند سيبويه من أفكار تصب في هذا الإطار. ومن كلام الأمرين - كلام الغربيين وكلام سيبويه - يمكن أن نصوغ بعض النتائج المهمة، التي ربما تضع بعض المعالم لمن يرجو البحث في هذا المجال فيما بعد.
- والناظر في (كتاب سيبويه) يجد أنه لا يدرس اللغة المجردة، وإنما يدرس اللغة الحية في ارتباطها بمسئمتعملها، ويراعي - كثيرًا - في تأويلاته مسألة قصد المتكلم، وأحوال المخاطبين. ويتأكد لنا - مبدئيًا - ذلك الزعم، بمجرد النظر إلى الإحصاء التالي الذي قام به جيرارد ت Gerard T، والذي يوضح عدد مرات ورود بعض الكلمات - ذات الصلة بالمجال التداولي - في (الكتاب) (5):

الكلمة	عدد مرات ورودها	الكلمة	عدد مرات ورودها
متكلم	23	مخاطب	86
نية	27	مخاطبة	11
نوى	13	خاطب	10
التبس بـ	64	أخبر عن	16
التباس	43	حديث (بمعنى خبر أو إخبار)	35
ملتبس بـ	11	حال (بمعنى مقام)	368
استعمال	52	مستعمل	32

فهذا الإحصاء يبين مدى شيوع المصطلحات الخاصة باللغة المنطوقة التي تستلزم وجود متكلم ومخاطب وسياق؛ وليس بمستغرب أن تشيع مثل هذه المصطلحات - التي تتصل باللغة الحية المستعملة - لدى سيبويه، وهي تلك اللغة التي أحسن مصاحبته، وبنى عليها استنباطاته اللغوية، وقواعده النحوية" (6).

والأهم من مجرد ورود تلك المصطلحات هو بيان سيبويه الطرق التي يسلكها المخاطب ليصل إلى المعنى الذي يقصده المتكلم؛ وبخاصة معاني الجمل التي حذف منها أحد أجزائها، أو الجمل التي تحمل أكثر من معنى، أو الجمل التي تحمل معنى غير معناها اللغوي المباشر، ونحو ذلك.

وليس أدل على ذلك من تأويل سيبويه لقول القائل: مررتُ برجلٍ حمارٍ؛ إذ يرى أنه "على وجهٍ محالٍّ وعلى وجهٍ حسنٍ؛ فَأَمَّا المحالُّ فأنَّ تعني أنَّ الرجلَ

حِمارٌ ، وأما الذي يحسنُ فهو أن تقول مررتُ برجلٍ ثم تُبدِلَ الحِمارَ مكانَ الرجلِ فتقولُ (حِمارٍ) إمّا أن تكونَ غلطتَ، أو نسيتَ فاستدركتَ، وإمّا أن يبْدُو لك أن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورك بالحمار، بعد ما كنتَ أردتَ غيرَ ذلك" (7)، فسيبويه يحمل هذا الكلام على الخطأ أو النسيان أو الإضراب -ولا يكون ذلك إلا في كلام منطوق متداول- وذلك هو معنى البدلية، أو يحمله على الإحالة؛ وذلك إذا لم يقصد المتكلم المعنى المجازي للكلام (أي لم يقصد أنه مرَّ برجلٍ غبيّ). فتحديد أي معنى من تلك المعاني يتوقف على معرفة قصد المتكلم، وقصده -هنا- غير محدد بالنسبة للمستمع؛ لافتقاده لشرط الوضوح، وعندئذ يلجأ المستمع إلى (التأويل التداولي)، إما بتخطئة الكلام (الإحالة)، أو بالتأويل المجازي، أو بالتوسيع: عن طريق المعرفة المسبقة بقصد المتكلم، أو عن طريق وجود مؤشر مقامي يُغلب معنى على آخر... إلى غير ذلك من وسائل التأويل التداولي التي سنتوقف عندها في كتاب سيبويه.

إن الطرق التي ارتضاها سيبويه لا تختلف كثيرا عما ارتضاه التداوليون من وسائل التأويل التداولي التي أشرت إليها آنفا؛ لذا سنتتبع هذه الوسائل في الكتاب، ولا نرجو من وراء ذلك أن نخلع على سيبويه ثوب الحداثة، ولا نريد أن نحمل كلامه أكثر مما يحتمل. إنما الغرض -كما قلت آنفا- جمع تلك الوسائل في إطار نظري واحد، ودعمها بما جاء عند سيبويه من أفكار تصب في هذا الإطار.

\*\*\*

### \*وسائل التأويل التداولي في كتاب سيبويه:

#### - أولا: التكميل completion:

يعد التكميل أدنى مستويات التأويل التداولي؛ لاعتماده على السياق في الوصول إلى معنى الكلام، أو بعبارة أدق: لاعتماده على السياق لتحديد الكلام الناقص (المحذوف) الذي به يتضح قصد المتكلم. ففي الجمل التي تحتاج إلى تكميل

لا يصعب على المستمع تقدير العنصر المحذوف، لأنه إنما يستدل عليه بالمذكور أو بسياق الحال. وذلك بخلاف التوسيع الذي يعتمد -في شق منه- على المعرفة المسبقة بقصد المتكلم -وذلك ما لا يتحقق دائماً- أو على الأقل يعتمد على وضع افتراض مسبق لما يعنيه المتكلم، ويعتمد -في شقه الآخر- على السياق المقامي دون السياق المقالي. ومن ناحية أخرى يتحقق التكميل على المستوى التركيبي للوصول من خلاله إلى مقصد المتكلم على المستوى الدلالي، في حين أن التوسيع يتحقق على المستوى الدلالي دون التركيبي؛ إذ يُفترض المحذوف لكنه لا ينطق به في الكلام، كما سيتضح فيما بعد.

وقد خصص روبرت ج. Robert J. بحثاً كاملاً للتحليل التداولي للجمل الناقصة The Pragmatics of Non-sentences (أي الجمل التي حذف منها عنصر أو أكثر)؛ أشار في مطلعها إلى أن تلك الظاهرة اللغوية (ظاهرة الحذف) ظاهرة مشهورة ومستعملة على نطاق واسع بين المتكلمين باللغة، فالتكلم العادي لا ينطق جملاً تاماً -في كل الأحوال- إنما ينطق، بطريقة روتينية، كلمات أو عبارات أو جملاً ناقصة، وهو بذلك ينجز كلاماً مفهوماً (8)، "ويُفترض -أحياناً- إكمال معاني تلك الجمل من خلال المؤشرات السياقية الثابتة" (9)، والباحث يشير بقوله (أحياناً) إلى وجود وسائل أخرى -وإن لم ينص على ذلك- يتضح من خلالها المعنى الناقص، نحو المعرفة المسبقة بمقصود المتكلم؛ كما سنبينه في موضعه من هذا البحث.

إن "اللغات لا تترك المتحدثين بها يعانون من مشكلة بناء الجسور لسد الفجوة بين المعاني النحوية-المعجمية the dictionary-grammar meanings

للکلام المنطوق، والمعنى الدقيق في السياقات الاتصالية communicative contexts، فجميع اللغات تتضمن طرقا لحل تلك المشكلة" (10)، والمؤشرات السياقية إحدى تلك الطرق التي بها تكتمل الجملة ويتحقق لها معناها المقصود.

ومن الأمثلة التي يسوقها (روبرت ج.) لاعتماد المستمع على سياق الحال في تأويله لكلام المتلقي، أن يسأل أحدها ساعي البريد عن خطاب ينتظره قائلا: (من كولومبيا؟)، أو أن تأمر الأم طفلها قائلة: (إلى غرفة نومك، الآن) (11). فلا شك أن المستمع يكمل تلك الجمل بناء على سياق الحال الذي تنطق فيه؛ كالإشارة إلى الخطاب في الجملة الأولى، وكون الطفل -حال النطق بالجملة الثانية- قد سهر طويلا، وما يصاحب نطق العبارة من إشارة حاسمة إلى غرفة نوم الطفل.

وبذلك يفهم المستمع تلك الجمل كما لو كانت: هل هذا من كولومبيا؟ و: انطلق إلى غرفة نومك، الآن. ويفهم المستمع كذلك ما يصاحب الجملة الأولى من لهفة أدت إلى حذف العنصر الذي يستطيع أن يصل إليه دون عناء، وكذلك يتحقق معنى الضجر والحسم بحذف فعل الأمر في الجملة الثانية.

ومن أمثله للتأويل التداولي بناء على السياق المقالي: (جون يريد أن يقتني كلبا، لكن جان لا تريد)، فهذا الكلام يعد قصيرا (مختصرا) إذا ما قورن بالبنية التركيبية الأساسية، ذلك لأن البنية الأصلية هذا الكلام هي: (جون يريد أن يقتني كلبا، لكن جان لا تريد أن تقتني كلبا)، فالتركيب الأساسي يحتوي على مفعول به لكل فعل في الجملتين، في حين أن الصوت المنطوق يحتوي على مفعول به للفعل في الجملة الأولى فحسب (12).

ولا شك أن من يتصفح كتاب سيبويه يتأكد له مدى اعتماد سيبويه على السياق بشقيه في تأويله لمثل تلك الجمل السابقة (13). وسنتناول -هنا- بعضاً مما بينه بهذا الصدد، على سبيل المثال لا الحصر.

يقول سيبويه في (باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجل مُسْتَعْنٍ عن لَفْظِكَ بِالْفِعْلِ): "وذلك قولك زيداً وعمراً ورأسه، وذلك أنك رأيت رجلاً يَضْرِبُ أو يَشْتِمُ أو يَقْتُلُ، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تَلْفِظَ له بعمله. فقلت: زيداً؛ أى: أَوْقَعُ عملك بزيد" (14).

ويؤكد ذلك في غير موضع من الكتاب، منها قوله في (باب يكون المبتدأ فيه مضمراً ويكون المبنى عليه مظهراً): "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت عبد الله وربى كأنك قلت ذاك عبد الله أو هذا عبد الله أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت زيد وربى أو مسست جسداً أو شممت ريحاً فقلت زيد أو المسك أو نقت طعاماً فقلت العسل ولو حدثت عن شمائل رجل فصار آية لك على معرفته لقلت عبد الله، كأن رجلاً قال مررت برجل راحم للمساكين بار بوالديه فقلت فلان والله" (15).

فالمتكلم لم ينطق جملاً تاماً، اعتماداً منه على السياق المقامي في إكمال الجزء الناقص تركيبياً، والوقوف على الدلالة المقصودة من كلامه المنطوق. وسيبويه هنا أشار إلى مجموعة من المؤشرات السياقية التي يتحقق بها ذلك الإكمال؛ نحو الإدراك بحاسة من الحواس الخمس: الرؤية والسمع والشم والذوق. وسيبويه ينسب ذلك الإدراك إلى المتكلم، وذلك أنه يقول (رأيت كذا فقلت كذا، وسمعت كذا فقلت كذا...)، لكنه يؤكد اشتراك المخاطب في إدراك تلك



المؤشرات السياقية، ولو لم يكن المخاطب فاهما لملايسات الحدث لعدّ هذا الكلام غامضا غير مفيد؛ وليس أدل على ذلك من قوله السابق: (وذلك أنك رأيت رجلا يَضْرِبُ أو يَشْتِمُ أو يَقْتُلُ، فَاكْتَفَيْتَ بما هو فيه من عمله أن تَلْفِظَ له بعمله. فقلت: زيدا؛ أي: أوقع عملك بزيدا). فالمتكلم إنما اكتفى بجزء من الكلام وترك الجزء الآخر اعتمادا على عمل المخاطب (الضرب أو الشتم أو القتل)؛ فملايسة المخاطب لمثل تلك الأفعال يفسر ما حذفه المتكلم من كلامه؛ فلا شك أن المخاطب يعلم أن المتكلم عند نطقه بقوله: (زيدا) إنما يقصد: (اضرب أو اشتهم أو اقتل) أو نحو ذلك من الأفعال التي ينجزها عند النطق بذلك الكلام.

ومن المؤشرات السياقية التي تحدد العنصر المحذوف تركيبيا ودلاليا (إقبال المخاطب على المتكلم عند النداء). يقول سيبويه: "أول الكلام أبدا النداء إلا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك، فهو أول كل كلام لك، به تعطف المُكَلِّم عليك" (16). فالنداء إنما هو طلب إقبال المخاطب على المتكلم، فإذا ما كان المخاطب في حال إقبال، فلا داعي إذن للتلفظ بحرف النداء، إذ هو مضمّر في النفس استغناء بتك الحال.

وفي (باب ما يُضْمَرُ فيه الفعلُ المستعملُ إظهاره في غير الأمر والنهي) يبين سيبويه دور السياق المقالي في إكمال الكلام وبيان معناه، إذ يقول: "ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: (بَلْ مَلَأَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) أي بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا، كأنه قيل لهم اتبعوا حين قيل لهم كونوا هودا أو نصارى" (17). فالمحذوف إنما فهم من الكلام السابق؛ إذ معنى (كونوا هودا أو نصارى) اتبعوا ذلك النهج. فحذف الفعل (نتبع) استغناء بما يدل عليه من الكلام السابق.

قد يبدو هذا الكلام -حول دور السياق في تأويل الكلام- غير جديد، لكنني أوردت ما أوردته هنا لسببين؛ أولهما أن السياق في (التداولية) يتجلى -من وجهة

نظري- في أمرين مختلفين هما التكميل والتوسيع؛ ففي التكميل يُحدّد السياقُ العنصرَ الغائبَ نحويًا ودلاليًا (وهو ما عبر عنه نحائنا القدماء بالحذف الجائز)، في حين أنه في التوسيع يحدد العنصرَ الغائبَ دلاليًا فحسب، ولا يحدده نحويًا إلا على سبيل الافتراض (وهو ما عبر عنه نحائنا بالحذف الواجب)، ويعبر عنه سيبويه - عندما يفترض المحذوف- بقوله: "فهذا تمثيلٌ ولا يُتكلّم به" (18)، وعبر عنه بطرق أخرى سنتعرض لها عند الكلام عن التوسيع.

**وثانيهما** أن السياق جزء من النظرية التداولية، لكنه ليس كل النظرية التداولية Pragmatic Theory التي تعتمد بشكل كبير على (19):

1- نظرية الأبنية اللغوية (الصرف، والنحو، وأوزان الشعر Prosodic).

2- السياق.

3- كيفية تفاعل التركيب والسياق مع القواعد الدلالية.

"فالكلام المنطوق هو اقترانات لفظية منظمة من البنية اللغوية، وسياق الكلام" (20).

وهذا الكلام يوحي بتطابق علم الدلالة والتداولية، والحق أن هناك تداخلا بين العلمين، وهذا التداخل سببه أن كليهما مهتم بدراسة المعنى؛ لكن الفروق بينهما تتمثل في أن "التداولية تدرس التعبيرات المنطوقة" (21) ذات الغرض الاتصالي، مع اعتبار السياق الذي نطقت فيه. ومن جهة أخرى يهتم علم الدلالة بالمعنى اللغوي داخل السياق أو خارجه، في حين تهتم التداولية بالمعنى معتبرة السياق ومقصد المتكلم والافتراض المسبق، ولا تهتم بالمعنى اللغوي المجرد بعيدا عن السياق؛ ذلك

لأنه "ليست كل التراكيب يمكن استغلالها لتأدية أغراض تداولية" (22)، وبعبارة أخرى: لكل جملة دلالة، وليس لكل جملة غرض تداولي. ويرى فان دايك أن الجمل التي تحمل وظيفة تواصلية تجمع الدلالة والتداولية؛ لذا فهي جمل معقدة غاية التعقيد (23).

فالمعلومة الدلالية معلومة لغوية، في حين أن المعلومة التداولية معلومة فوق لغوية Extra-linguistic (24)، وباختصار: علم الدلالة يعنى بالمعنى اللغوي Linguistic Meaning، في حين أن التداولية تعنى باستعمال اللغة Language Use (25)، فالدلالة تنتمي إلى البحوث اللغوية البحتة، أما التداولية فتنتمي إلى بحوث فلسفة اللغة.

#### - ثانياً: التوسيع expansion:

التوسيع يعني تقدير المحذوف على المستوى الدلالي، دون المستوى التركيبي. ويلجأ المتلقي إلى التوسيع في نوعين من الجمل:

- 1- الجمل التي تحتوي على حذف واجب.
- 2- الجمل التامة التي يُراد من ورائها معنى آخر أكثر اتساعاً من معناها اللغوي، وهو ما يمكن تسميته (المعنى التداولي).

ويتحقق التوسيع إما باللجوء إلى الافتراضات المسبقة التي يأخذها الطرفان -المتكلم والمستمع- في الاعتبار، أو باللجوء إلى المعرفة اللغوية المشتركة بين أصحاب اللغة، أو باللجوء إلى السياق المقامي الذي يساعد في التعرف على ذلك المعنى التداولي.

وقد انصب اهتمام التداوليين على النوع الثاني وهو تلك الجمل التامة التي يراد معناها التداولي الأكثر اتساعاً من معناها اللغوي؛ 'فعلى سبيل المثال لو أن

زوجة أحدهم قالت: سأكون في البيت في وقت متأخر؛ فهي تعني -على الأرجح- أنها ستكون في البيت في وقت متأخر هذه الليلة، وليس لمجرد بعض الوقت في المستقبل. وكذلك لو افترضنا أن طفلك غدا يبكي لأذى حقير أصابه، فنقول له: إنك لن تموت؛ فأنت لا تعني أنه لن يموت أبداً، بل مجرد أنه لن يموت بسبب ذلك الأذى. ففي الجملتين لا تعني ما تقوله حرفياً، إنما تعني شيئاً أكثر تحديداً" (26).

فالمراد من هاتين الجملتين ليس معناهما اللغوي الحرفي، إنما معناهما التداولي الأكثر اتساعاً. ففي الجملة الأولى يُتوصل إلى ذلك المعنى من خلال الافتراض المسبق بأن النطق بمثل تلك الجملة يعني اعتبار معناها بالنظر إلى الزمن الفيزيائي المحدد الذي قيلت فيه، وأنه لا يراد معناها في المستقبل المطلق غير المحدد. أما الجملة الثانية فلا يتحدد معناها التداولي إلا من خلال السياق المقامي الذي يتمثل في معرفة الطرفين لسبب البكاء وتنبئه المستمع إلى كون ذلك السبب شيئاً حقيراً لا يستوجب كل ذلك البكاء؛ ومن ثم لا يراد المعنى اللغوي الحرفي للجملة وإنما يراد توسيعها دلالياً، لتدل على معنى تداولي أكثر دقة.

"وفي حالات أخرى، نحو: (جاك جاهز، وجِل متأخر) نجد أن هاتين الجملتين لم تعبرا عن غرض مكتمل، فلا شك أن هناك شيئاً تطب أن يكون (جاك) جاهزاً من أجله، وكذلك هناك شيء استدعى من (جل) أن يكون متأخراً عنه. وفي كلتا الحالتين ليست هناك كلمة أو عبارة محددة يمكن استخدامها استخداماً حرفياً، وكذلك ليس هناك انبهام تام في الواجهة. فكل الأمرين مضمن في طريقة التحدث؛ فهناك جزء من المعنى المقصود لم يُبلِّغ بطريق صريحة Explicitly وإنما بطريقة ضمنية Implicitly، عن طريق التوسيع Expansion" (27).

فعلى مستوى التركيب النحوي الجملتان تامتان وليس فيهما أي نوع من أنواع الحذف، وعلى مستوى الدلالة اللغوية الجملتان لا تخبران إلا عن مجرد كون

جاك جاهزا وجل متأخرا. أما الغرض الذي سيق من أجله ذلك الكلام فلا يتحدد إلا على المستوى التداولي، ولن يتحقق -إذن- لمثل تلك الجمل معناها التداولي إلا من خلال التوسيع اعتمادا على الافتراضات المسبقة "حيث المعلومات المشتركة والمعروفة مسبقا لدى المتكلم والمخاطب" (28).

وحول ذلك النوع من الجمل تأتي تحليلات التداوليين الغربيين، أما الجمل التي تحتوي على حذف واجب فلم يتعرضوا لها؛ وربما تكون علة ذلك أن الحذف الواجب ليس من خصائص اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات التي يتناولونها بالبحث التداولي.

لكن الناظر في كتاب سيبويه يجده يتناول النوعين جنبا إلى جنب، ففي إطار حديثه عن الحذف الواجب في (باب ما يُنصبُ من المصادر على إضمارِ الفعلِ غيرِ المستعملِ إظهاره) يقول: "وذلك قولك سَقِيًّا ورَعِيًّا ونحو قولك خَيْبَةً ودَفْرًا وجَدْعًا وعَقْرًا وبِؤْسًا وأُفَّةً وتُفَّةً وبُعْدًا وسُحْقًا ومن ذلك قولك تَعَسًّا وتَبًّا وجُوعًا... وإنما يَنْتصب هذا وما أشبهه إذا ذكرَ مذكورٌ فدعوتَ له أو عليه على إضمارِ الفعلِ كأنَّكَ قلتَ سَقَاكَ اللهُ سَقِيًّا ورَعَاكَ اللهُ رَعِيًّا وخَيْبَكَ اللهُ خَيْبَةً، فكلُّ هذا وما أشباهه على هذا يَنْتصب. وإنما اختزلَ الفعلُ ها هنا لأنَّهم جعلوه بدلًا من اللفظِ بالفعلِ، كما جعلَ الحَذَرَ بدلًا من احذِرْ وكذلك هذا كأنَّه بدلٌ من سَقَاكَ اللهُ ورَعَاكَ اللهُ ومن خَيْبَكَ اللهُ وما جاء منه لا يظهر له فعلٌ فهو على هذا المثال نصبٌ كأنَّكَ جعلتَ بَهْرًا بدلًا بَهْرَكَ اللهُ فهذا تمثيلٌ ولا يُتكلَّم به" (29).

فقول سيبويه: (هذا تمثيلٌ ولا يُتكلَّم به) يؤكد أن تأويل المحذوف إنما تم على المستوى الدلالي وليس على المستوى التركيبي؛ فالحذف في مثل هذه الجمل حذف واجب، ولا يُعقل النطق بعنصر لغوي وجب حذفه، إلا على سبيل التمثيل. ويشير سيبويه إلى أن معرفة المحذوف -في مثل تلك الجمل- تعتمد على الافتراض

المسبق بين أصحاب اللغة الذين عبر عنهم بصيغة الجمع في قوله (وإنما اختزل الفعلُ  
ها هنا لأنهم جعلوه بدلاً من اللفظ بالفعل)، فالمتكلم عندما يتكلم بمثل هذا الكلام  
يفترض أن المستمع يعلم المعنى المراد، وكذلك المستمع يتعرف على ذلك المعنى من  
خلال افتراضه المسبق بأن المتكلم أراد ذلك المعنى؛ فهناك شبه اتفاق بين أصحاب  
اللغة على المراد من تلك الجمل التي حذف أحد عناصرها وجوباً؛ ذلك لأنك -على  
حد تعبير سيبويه- "إنما تُضمِر حين ترى أنّ المُحدِّث قد عرَفَ مَنْ تَعْنِي" (30)، ولو  
لم يتحقق ذلك الاتفاق بين مستخدمي اللغة لما جاز الحذف. "فتلك الافتراضات المسبقة  
لا تُفترض إلا من أجل أن يصبح الكلام ناجحاً ومناسباً. وتتحقق تلك الافتراضات من  
خلال الاعتقادات السياقية المتبادلة التي يأخذها المتكلمون في الاعتبار؛ لبناء مقاصد  
اتصالية، وكذلك يأخذها المستمعون في الاعتبار؛ للتعرف على تلك المقاصد" (31).

وفي نحو قولنا: الحمدُ لله الحميدَ، يحكي سيبويه ثلاثة أوجه: أولها الإتيان إذا  
أردنا الوصف، والثاني القطع بالرفع على الابتداء، والثالث القطع بالنصب على إرادة  
المدح والتعظيم. لكن سيبويه يحكي عن الخليل شرطاً تداولياً لا بد منه لكي يأتي الكلام  
منصوباً على إرادة المدح أو الذم أو الترحم؛ إذ يقول: "زعم الخليل أن نصب هذا  
على أنك لم ترد أن تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من  
ذلك ما قد علمت فجعله ثناءً وتعظيماً. ونصبه على الفعل؛ كأنه قال أذكر أهل ذلك  
وأذكر المقيمين، ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره" (32).

فلا بد لكي ينصرف الكلام -في مثل تلك الجمل- إلى المدح أو الذم أو الترحم،  
أن يُحدِّث المتكلمُ المخاطبَ بأمر يعلمه؛ فهناك معرفة مشتركة بين الطرفين، وتلك  
المعرفة هي التي سوغت انصراف الكلام إلى تلك الأغراض.

فإذا ما قال أحدها: أتاني زيدٌ الفاسقُ الخبيثُ، بالنصب، فإنه -عندئذٍ- "لم يرد أن يكرره، ولا يعرفك شيئاً تنكره، ولكنه شتمه بذلك" (33). وفي قراءة النصب "وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةٌ الحَطَبِ) لم يجعل الحمالةَ خبراً للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكر حمالة الحطب شتما لها، وإن كان فعلا لا يستعمل إظهاره" (34).

وفي قول الشاعر:

سَقَوْنِي الخَمْرَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي

عُدَاةَ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ

بنصب (عُدَاةً)، يقول سيبويه: "إنما شتمهم بشئ قد استقر عند المخاطبين" (35). ففي كل ما سبق قطع الكلام بالنصب، والناصب فعل محذوف وجوبا، لأنه (فعل لا يستعمل إظهاره) -على حد قول سيبويه- ومن ثم فتقديره بـ (أمدح، أو أذكر مادحا، أو أذم، أو أذكر شتما، أو نحو ذلك) إنما هو تقدير على المستوى الدلالي وليس على المستوى التركيبي؛ ليتضح الغرض التداولي المقصود من الكلام. وهذا الغرض إنما يفهمه المتلقي بناء على المعرفة المسبقة المشتركة بينه وبين المتكلم؛ فالمخاطب -في المثال- لا بد أنه يعلم أن زيدا فاسق خبيث، وكذلك المخاطب بالآية الكريمة يعلم من أمر امرأة أبي لهب أنها كانت تضع الحطب في طريق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكذلك المخاطب بببيت الشعر لا بد أنه يعلم أن هؤلاء القوم تلك صفتهم. وإذا ما كان المخاطب يعرف المحدث عنهم ويعلم صفاتهم ولا ينكرها؛ فأولى بالمتكلم أن يبني على تلك المعرفة المشتركة معنى جديدا هو ذمهم بتلك الصفات، وكذلك الأمر عند إرادة المدح والترحم.

فإذا لم يكن المحدث عنه معلوما لدى المخاطب، قدّم المتكلم بين يدي الذم أو المدح وصفاً لذلك المحدث عنه، ليتمكن المتلقي من التعرف عليه؛ كما في نحو قول الفرزدق:

كَمَ عَمَّةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةَ

فَدَعَاءَ قَد حَبَبْتُ عَلَى عَشَارِي

شَغَارَةَ تَقْذُ الْفَصِيلَ بَرَجْلَهَا

فَطَّارَةَ لِقَوَائِمِ الْأَبْكَارِ

أراد الشاعر أن يحدد المحدث عنه فوصفه في الشطر الثاني بالبيت الأول، تمهيدا لقطع الكلام بالنصب، لإرادة معنى الذم في قوله (شغارة)؛ وهذا معنى قول سيبويه: "جعله شتما وكأنه حين ذكر الحلب صار من يُخاطَبُ عنده عالما بذلك" (36).  
فإذا جهل المخاطب المحدث عنه، ولم يرد المتكلم ذمه ولا مدحه ولا الترحم عليه؛ فله أن يأتي بالصفة منصوبة ليُعرِّفَ المخاطب بذلك الذي يجهله، لكن النصب هذه المرة يكون بفعل محذوف جوازا؛ أي أنه يمكن تأويله على المستوى التركيبي. مثال ذلك قول الشاعر:

وَمَا غَرَّنِي حَوْزُ الرَّزْزَامِيِّ مَحْصَنًا

عَوَاشِيهَا بِالْجَوِّ وَهُوَ خَصِيبٌ

يقول سيبويه: " فنصبه على أعني وهو فعل يظهر، لأنه لم يرد أكثر من أن يعرفه بعينه، ولم يرد افتخارا ولا مدحا ولا نما" (37).

ففي كل ما سبق - عدا البيت الأخير - يلجأ المتلقي إلى التوسيع على المستوى الدلالي، دون التركيبي؛ معتمدا على المعرفة المسبقة بأمر المحدث عنه.



لكنه في البيت الأخير يعتمد على التكميل على المستوى التركيبي. وكلاهما -التكميل والتوسيع- ضربٌ من التأويل التداولي.

ويتجلى في كتاب سيبويه النوع الثاني (الجمل التامة التي يُراد من ورائها معنى آخر أكثر اتساعاً من معناها اللغوي)؛ إذ نجد سيبويه يلجأ إلى التوسيع التداولي لتأويل مثل قولنا: أتاني رجل، حيث يقول: "يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحداً في العدد لا اثنين، فيقال ما أتاك رجل؛ أي أتاك أكثر من ذلك. أو يقول أتاني رجل، فيقال ما أتاك رجل؛ أي امرأة أتتك. ويقول أتاني اليوم رجل؛ أي في قوته ونفاذه، فتقول ما أتاك رجل؛ أي أتاك الضعفاء" (38). فهذه الجملة على مستوى التركيب النحوي جملة تامة، ليست في حاجة إلى تقدير محذوف -كما هو الحال في النوع الأول- لكنها على المستوى الدلالي غير مفيدة؛ لذا لجأ سيبويه إلى التوسيع على المستوى الدلالي ليتحقق المعنى التداولي المراد. فالمعنى اللغوي لهذه الجملة غير مفيد، لكنه يصبح مفيداً إذا ما أولّه المتلقي بمثل ما أولّه به سيبويه؛ بإضافة معلومات جديدة ليست موجودة في الكلام المنطوق. فالمعاني التي توصل إليها سيبويه معانٍ تداولية أكثر اتساعاً من ذلك المعنى اللغوي لمنطوق الجملة.

والمتلقي يلجأ إلى مثل ذلك التوسيع اعتماداً على افتراضه المسبق بأن المتكلم أراد معنى تواسلياً -عندما نطق بمثل تلك الجملة- وأنه لم يرد أن يتكلم بكلام غير مفيد؛ إذ لا يلجأ المتلقي إلى الحكم بعدم الفائدة (الإحالة) إلا إذا استنفد كل الوسائل التداولية التي تمكنه من فهم قصد المتكلم.

وكذلك يتحقق التوسيع التداولي السابق من خلال مؤشرات السياق المقامي، والتي تتضمن وقوف المستمع على حال المحدث عنه؛ وذلك ما أشار إليه سيبويه بالجملة الصادرة عن المستمع (ما أتاك رجل)، واختلاف تأويلها في كل مرة تبعاً لمقصود المتكلم؛ فإذا ما قصد المتكلم بالرجل العدد، كان معناها: أتاك أكثر من

ذلك. وإذا ما قصد المتكلم بالرجل جنس الرجل، كان معناها: أنتك امرأة لا رجل... وهكذا في كل مرة يكون توسيع المتلقي للكلام مبنياً على افتراضه المسبق بأن المتكلم يريد بكلامه معنى توأصلياً من جهة، وعلى السياق المقامي من جهة أخرى.

### - ثالثاً: التضمين التقليدي conventional implicature:

يُراد بالتضمين التقليدي أن "يعني المتكلم شيئاً فيما وراء معنى الجملة، دون لجوء إلى تقدير محذوف بعينه، ودون لجوء إلى التعبيرات المجازية" (39)؛ فعندما تكون المعاني مستنتجة من المعلومات الصريحة المنطوقة، فنحن نتحدث عما هو مضمّر أو ضمني أكثر مما نتحدث عما هو غير مكتمل (40).

ففي سياقات معينة ربما تُستخدم الجملتان التاليتان -على سبيل المثال- للدلالة على معانٍ ضمنية غير مباشرة؛ كالتالي بين القوسين (41):

- معطفك على الأرض. (احمل معطفك).

- جون سيتقدم للامتحان يوم السبت. (لن أستطيع تلبية دعوتك على الغداء).

إن المعنى الدلالي لهاتين الجملتين -خارج السياق- هو مجرد (الإخبار)؛ لكن بالنظر إليهما في سياقهما الذي قيلتا فيه نجد أنهما تضمنا معنى تنبيه المخاطب إلى حمل معطفه (في الجملة الأولى)، والاعتذار عن الدعوة (في الجملة الثانية).

فلا يُلجأ -في مثل تلك الجمل- إلى التكميل على المستوى التركيبي؛ لأنه ليس هناك محذوف فيُقَدَّر. وكذلك لا يُلجأ إلى التوسيع على المستوى الدلالي؛ لأن المعاني الدلالية لتلك الجمل ليست مرادة فتوسّع. إنما المراد معنى تداولي هو رَدْفٌ لذلك المعنى الدلالي -على ألا يكون معنى مجازياً- ويتم تحديده من خلال السياق المقامي.

وكتاب سيبويه يحتوي على أمثال تلك الجمل التي يؤولها سيبويه اعتمادا على السياق المقامي؛ ليصل من خلال ذلك إلى معنى هو تال للمعاني الدلالية لتلك الجمل. يقول سيبويه: "وتقول: قد جربتكَ فوجدتكَ أنت أنت، فأنت الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها؛ كأنك قلت فوجدتكَ وجهك طليق، والمعنى أنك أردت أن تقول فوجدتكَ أنت الذي أعرف. ومثل ذلك: أنت أنت، وإن فعلت هذا فأنت أنت؛ أي فأنت الذي أعرف أو أنت الجواد والجلد. كما تقول: الناس الناس؛ أي الناس بكل مكان وعلى كل حال كما تعرف. وإن شئت قلت: قد وليت عملا فكنت أنت إياك، وقد جربتكَ فوجدتكَ أنت إياك، جعلت أنت صفة وجعلت إياك بمنزلة الظريف إذا قلت فوجدتكَ أنت الظريف؛ والمعنى أنك أردت أن تقول وجدتك كما كنت أعرف" (42).

إن جملة نحو: (أنت أنت) ظاهرها يوحي بالتوكيد اللفظي، وذلك هو معناها اللغوي بعيدا عن السياق. يقول سيبويه "وتقول: أنت أنت، تكررهما كما تقول للرجل أنت وتسكت... تقول: قد جربت فكنت كنت، إذا كررتها توكيدا" (43). لكن باللجوء إلى السياق الذي قيلت فيه يصبح المراد ليس معناها اللغوي، إنما معناها التداولي الضمني الذي هو تال لذلك المعنى اللغوي (أي أن الضمير "أنت" لا يُراد معناه اللغوي، إنما يراد به الوصف؛ أي بمنزلة "الظريف" لو قلت: أنت الظريف). والمعنى التداولي المراد في الجمل السابقة - هو ما أشار إليه سيبويه بقوله: (أنت الجواد والجلد) أو (وجهك طليق)، ونحو ذلك. ومن خلال السياق المقامي يتحدد معنى من بين تلك المعاني.

ويتضح الفارق بين التضمين والتوسيع من خلال المقارنة بين المعنى المراد من تمثيل سيبويه: (أتاني رجل) - كما وضعنا سابقا - وبين تمثيله هنا: (أنت أنت). ففي قوله: أتاني رجل، يُراد المعنى اللغوي ثم يُوسَّع ليدل على معنى تداولي؛ أي

أتاني رجل لا امرأة أو أتاني رجل واحد لا اثنان. أما في قوله: أنت أنت، فيُطرح  
المعنى اللغوي المباشر، ويراد معنى تداولي هو ردفٌ له، كما بيَّنا.  
فإذا ما قال المتكلم شيئاً وأراد شيئاً (أكثر) فعندئذ يفهم المتلقي كلامه من خلال  
التوسيع أو التكميل، أما إذا ما قال شيئاً وأراد شيئاً (آخر) فعندئذ يفهم المتلقي كلامه  
إما على التضمنين أو المجاز.

#### - رابعاً: التأويل المجازي:

إذا ما خلا كلام المتكلم من عنصر الصدق (أي: مطابقة الكلام للواقع) -أو  
كان من قبيل المستقيم الكذب باصطلاح سيبويه(44)- فعندئذ يلجأ المتلقي إلى  
التأويل المجازي لفهم مراد المتكلم، معتمداً -في أغلب الأحيان- على السياق المقامي.  
إذن يمكن للمتكلم أن يقول شيئاً لكنه يريد شيئاً آخر، وعلى المستمع أن يصنع  
استنتاجاً سياقياً خاصاً ينقله مما قاله المتكلم إلى ما يعنيه(45). وفي مجال  
(التداولية) ينظر للمعنى الذي يقصده المتكلم Speaker Meaning على أنه معنى  
سياقي(46).

وفي كتاب سيبويه أمثلة متعددة لمثل تلك الجمل التي لا يفهمها المتلقي إلا على  
جهة المجاز. وقد تناولت شيئاً من ذلك في رسالتي للدكتوراه؛ لكن تناولتي لها هنا  
مختلف بالطبع؛ ففي رسالتي تلك انصب اهتمامي على توضيح كيفية بناء الجملة  
المجازية(47)، أما هنا فالاهتمام منصب على كيفية فهم المتلقي لتلك الجمل.  
مثل سيبويه للمستقيم الكذب في إطار حديثه عن (الاستقامة من الكلام  
والإحالة) بقوله: حَمَلْتُ الجبلَ، وشَرَبْتُ ماءَ البحر(48). والمتكلم يفهم معنى الجملة

الأولى على أن المراد "تشبيه حمل شيء ثقيل جداً، أو حمل تبعة ثقيلة، بحمل الجبل في الضخامة والتقل وإمكان النهوض - مع ذلك - بما حمل مع المشقة والعناء... وهنا يكون الاعتماد على السياق الذي ترد فيه الجملة" (49). وكذلك في الجملة الثانية يفهم المتلقي مراد المتكلم على جهة المجاز؛ كأن يُراد بها - في سياق معين - تجرُّعُه لشيء مؤلم لا يقبله ولا يستسيغه، وتشبيهه بمن يشرب من ماء البحر، ولا يكون المعنى مفهوماً على ذلك النحو إلا عند اعتبار أن المراد بـ (ماء البحر) ماء البحر كله لا بعضه؛ فقد يوحي منطوق الجملة بأنها من المجاز، لكن العُرف ينأى بها عنه إلى الحقيقة؛ وذلك "أنك إذا قلت: شربتُ ماءك - وإنما شربتُ بعضه - كنت صادقاً" (50)، وإنما جعل سيبويه قولك: حملتُ الجبلَ، وشربتُ ماءَ البحر، ونحوه - كذباً؛ "لبدلك على أن مراده هنا بقوله: ماء البحر - جميعه؛ لأنه لا يجوز أن يُشرب جميعُ مائه، فأما على العُرف في ذلك، على ما مضى، فلا يكون كذباً" (51).

وفي موضع آخر يقول سيبويه: "وتقول متى سيرَ عليه فيقول أمسٍ أو أولَ من أمسٍ فيكون ظرفاً على أنه كان السَّيرُ في ساعةٍ دونَ سائرِ ساعاتِ اليومِ أو حينِ دونِ سائرِ أحيانِ اليومِ. ويكونُ أيضاً على أنه يكونُ السَّيرُ في اليومِ كلِّه لأنك قد تقول سيرَ عليه في اليومِ ويُسارُ عليه في يومِ الجمعةِ والسَّيرُ كان فيه كلِّه. وقد تقول: سيرَ عليه اليومُ؛ فترفعُ وأنت تعنى في بعضه، كما تقول في سعة الكلام: الليلةُ الهلالُ؛ وإنما الهلالُ في بعض الليلة، وإنما أراد الليلةُ ليلةُ الهلالِ. ولكنه اتسع وأوجز... والرفعُ في جميعِ هذا عربىٌّ كثيرٌ في جميعِ لغاتِ العربِ على ما

ذكرتُ لك من سعة الكلام والإيجاز" (52). فجملة: سير عليه اليومُ (بالرفع) تنصرف إلى المجاز إذا ما قصد المتكلم أن السير كان في بعض اليوم وليس اليوم كله؛ وهو ما عبر عنه سيبويه بقوله (فترفعُ وأنت تعنى في بعضه)، وكذلك جملة: الليلةُ الهلال (يرفع الليلة) ينصرف إلى المجاز؛ لأن الهلال يكون في بعض الليلة. ويؤول المتلقي الجملة الأولى تأويلاً مجازياً بناءً على وجود مؤشر سياقي يدل على أن السير كان في بعض اليوم وليس في اليوم كله، أما الجملة الثانية فيؤولها تأويلاً مجازياً اعتماداً على استحالة كون ظهور الهلال يستغرق الليلة كلها.

وفي قوله ﷻ: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴾ (52) يقول سيبويه: فلم يشبهوا بما ينعق - وهو الراعي - وإنما شبهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى" (53).

والذي يهمننا في هذا النص أن سيبويه يجعل علم المخاطب بالمعنى هو الذي يسوغ مجيء الكلام على الاتساع والاختصار، وذلك ما يعبر عنه التداوليون بقولهم إن المتلقي "يفهم المعنى المراد من التعبيرات المنطوقة اعتماداً على الإدراك المسبق The Prior Recognition لمقاصد أنواع الكلام" (54).

وهذا الفهم من سيبويه للآية -بوصفه متقياً- يعتمد على وسيلتين من الوسائل التداولية هما: التكميل، والتأويل المجازي؛ إذ المعنى على حذف كلمة (مثلكم)؛ اعتماداً على الإدراك المسبق لمقصد الكلام؛ فالناعق هم المؤمنون والمنعوق به هم الكفار الذين يشبهون الأغنام أو نحوها من البهائم التي يصل إليها

كلام الناعق أصواتا مبهمة (دعاء ونداء) دون أن تفقه معناه. وكثيرا ما نجد سيبويه يعتمد على هاتين الوسيلتين في تأويل الجمل التشبيهية؛ إذ نجده يقرن بين مصطلحي (الاتساع أو السعة) و(الاختصار أو الإيجاز)؛ حتى إنه يضع بابين يحتوي عنوانهما على تلك الثنائية وهما: (باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار)(55)، و(هذا باب ما يكون فيه المصدرُ حيناً لسعة الكلام والاختصار)(56). ولا شك أن الكلام الموجز أو المختصر لا يفهم إلا من خلال التكميل كما أوضحنا من قبل، أما مجيء الكلام على السعة والاتساع فمن الجلي أن المتلقي يفهمه كذلك معتمدا على تأويله تأويلا مجازيا.

لكن الأستاذ سيد قطب يفهم الآية السابقة اعتمادا على التأويل المجازي فحسب دون لجوء إلى التكميل، مخالفا بذلك سيبويه؛ إذ يجعل الناعق هم الكفار والمنعوق به أصنامهم التي يدعونها فلا تستجيب لهم. يقول الأستاذ سيد قطب: "هكذا ينعق الكفار بما لا يسمع، وينادون ما لا يفهم، فلا يصل إليه من أصواتهم إلا دعاء مبهم، ونداء لا يفهم. فهؤلاء الآلهة لا يميزون بين الأصوات ولا يفهمون مراميها"(57).

وقد يبدو هذا التفسير وجيها للمتعجل؛ لكن من يكمل الآية يجد أنها تثبت للمنعوق به سماعا (لا يسمع إلا دعاء ونداء)، فعلى هذا التأويل يُثبت للأصنام سماعا، وهي التي نفى القرآن عنها السماع مطلقا في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)(58)، كما أن الاحتكام إلى السياق المقالي يرجح تأويل سيبويه من أن الناعق هم المؤمنون، والمنعوق به هم الكافرون؛ وذلك فحوى الآية السابقة لتلك الآية، يقول

عز وجل: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ  
كَانَ آبَاؤُهُمْ لَأَيَعْتَلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (59).

إذن يعتمد سيبويه في فهم الجمل التي تتضمن معنى تشبيها على وسيلتين من وسائل التأويل التداولي هما تكميل الكلام المختصر، والتأويل المجازي بفهم الكلام فهما مخالفا للمعنى الظاهر. والتأويل المجازي يعتمد على الإدراك المسبق لمقاصد الكلام أو على السياق المقامي الذي يرد فيه الكلام، وأحيانا يحتوي السياق المقالي على ما يرجح تأويلا مجازيا على تأويل مجازي آخر.

#### - خامسا: التخطئة (الإحالة):

لا يلجأ المتلقي إلى الحكم بتخطئة المتكلم إلا بعد أن يستنفذ جميع وسائل التأويل التداولي السابقة (التكميل والتوسيع والتضمين والتأويل المجازي). وقد جعل سيبويه الكلام على قسمين (مستقيم ومحال)؛ وقسم المحال إلى محال وهو "أن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غداً وسأتيك أمس" (60)، ومحال كذب وهو "أن تقول سوف أشرب ماء البحر أمس" (61).

إن المتلقي لا يستطيع تأويل تلك الجمل بناء على التكميل؛ لأنها لا تحتوي على محذوف فيقدر، كما أنها لا تتضمن معنى آخر أكثر مما نطق به فتوسع، ولا تتضمن معنى آخر غير الذي نطق به فيمكن تأويله على جهة التضمين أو المجاز؛ إذ لا تحتوي تلك الجمل على معنى آخر كالذي يوجد في قوله تعالى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (62)؛ إذ التعبير بالفعل الماضي عن حدث لم يقع بعد أفاد حتمية وقوع ذلك الحدث؛ وهو لحتمية وقوعه كأنه وقع بالفعل. لم يبق إذن أمام المتلقي سوى الحكم بتخطئة هذه الجملة، وسبب التخطئة وجود ذلك التناقض بين زمن الفعل



وزمن الظرف الذي قُبِدَتْ به الجملة؛ فأحدهما يدل على الزمن الماضي والآخر يدل على الزمن المستقبل، وليس وراء ذلك معنى مفيد. وتزداد المشكلة إذا ما جمع المتكلم بين المستوى المجازي والمحال، كما هو الحال في جملة (سوف أشرب ماء البحر أمس)؛ فعندئذ يكون حكم المتلقي على الكلام بالتخطئة أشد.

وأحيانا يضع سيبويه أمام المتلقي فرصة لتأويل آخر على غير الإحالة، وذلك إذا ما احتل الكلام ذلك التأويل؛ ومن ذلك "قولك مررتُ برجلٍ حِمَارٍ فهو على وجهٍ محالٌ وعلى وجهٍ حَسَنٍ فَأَمَّا المحالُ فَأَنْ تَعَنَى أَنَّ الرجلَ حِمَارٌ وَأما الذي يَحْسُنُ فهو أَنْ تقولَ مررتُ برجلٍ ثم تُبَدِّلَ الحِمَارَ مَكَانَ الرجلِ فتقولُ حِمَارٍ إمَّا أَنْ تكونَ غَلِطْتَ أو نَسِيتَ فاستدركتَ وإمَّا أَنْ يَبْدُوَ لَكَ أَنْ تُضْرِبَ عن مرورِكَ بالرجلِ وتَجْعَلَ مكانه مرورَكَ بالحمارِ بعد ما كنتَ أردتَ غيرَ ذلك" (63)؛ وهنا يضع سيبويه أمام المتلقي طريقين لفهم الكلام: الأول على البدلية؛ ولا يتحقق ذلك إلا بمعرفة أن المتكلم أراد الإخبار بأن مروره كان بحمار لا برجل، وعندئذ يصبح نطقه بكلمة (رجل) إما على سبيل الغلط أو النسيان أو الإضراب. وأما الثاني فهو الحكم بالتخطئة (الإحالة).

وأرى أنه من الممكن تأويل هذا الكلام تأويلا مجازيا على إرادة تشبيه الرجل بالحمار في عدم الفهم، ولا يتحقق ذلك المعنى إلا من خلال سياق الكلام. فإذا لم يكن في السياق ما يصرف معنى الكلام إلى البدلية أو المجاز، فعندئذ يلجأ المتلقي إلى الحكم بالإحالة.

والممتنع لهذا النمط من الكلام (المحال) في كتاب سيبويه يجد أنه دائما يشير إلى كونه كلاما مفترضا لا ينبغي أن يُتكلَّم به، وذلك أنه دائما يقول (وإن قلتَ كذا فهو محال)؛ ومن ذلك قوله: "فإن قلتَ مررتُ برجلٍ صالحٍ ولكنَّ طالحٍ فهو مُحالٌ؛ لأنَّ لكنَّ لا يُتداركُ بها بعد إيجابٍ ولكنها يُثبَّتُ بها بعد النفي" (64).

وإنما عدُّ مثل كل ذلك محالاً لأن الكلام لا يتحقق بالمعاني النحوية فحسب،  
إنما يتحقق بالمعاني النحوية المعجمية؛ وعلى الرغم من ذلك فإن "الكلام المنطوق لا  
يحتوي على المعاني النحوية المعجمية Dictionary-grammar Meaning فحسب،  
بل يُراعى فيه القيم الاتصالية للسياق في الاستخدام" (65).

### نتائج البحث:

1. أشار البحث إلى أن الجملة إذا ما اتسمت بالصدق (مطابقة الكلام للواقع)، والإفادة، والترابط، والوضوح، وملاءمة السياق؛ فعندئذ يصبح معناها مباشرا لا يحتاج إلى تأويل. أما إذا فقدت شرطا من تلك الشروط فعلى المتلقي أن يلجأ إلى وسائل التأويل التداولي ليفهم المعنى الذي يقصده المتكلم، وهو ما عبر عنه التداوليون بـ (القصد الاتصالي للمتكلم communicative intention).
2. تناول البحث خمساً من الوسائل التداولية التي يلجأ إليها المتلقي لكي يصل إلى المعنى الذي يقصده المتكلم؛ هي: التكميل completion، والتوسيع expansion، والتضمين التقليدي conventional implicature، والتأويل المجازي، والتخطئة (الإحالة).
3. يتحقق التكميل على المستوى التركيبي للوصول من خلاله إلى مقصد المتكلم على المستوى الدلالي، في حين أن التوسيع يتحقق على المستوى الدلالي دون التركيبي؛ إذ يفترض المحذوف لكنه لا ينطق به في الكلام، وهو ما عبر عنه سيبويه -في غير موضع من كتابه- بقوله: "فهذا تمثيلٌ ولا يُتكلَّم به".
4. إن ما يعرف بالتكميل لدى التداوليين هو ما يقابل (الحذف الجائز) لدى سيبويه والنحاة من بعده. والغرض من التكميل هو تقدير العنصر المحذوف ليتحقق للكلام معناه، ويُقدَّر العنصر المحذوف اعتماداً على السياق بشقيه، أو من خلال المعرفة المسبقة به. وذلك ما ظهر جلياً في كتاب سيبويه عند تناوله للجملة المحذوف أحد عناصرها جوازاً.

5. يلجأ المتلقي إلى التوسيع في نوعين من الجمل: أولها: الجمل التي تحتوي على حذف واجب. وثانيها: الجمل التامة التي يُراد من ورائها معنى آخر أكثر اتساعاً من معناها اللغوي.
- وقد انصب اهتمام التداوليين على النوع الثاني دون النوع الأول. أما سيبويه فيتناول النوعين جنباً إلى جنب في كتابه، وهو بذلك أوفى وصفاً وأعمق تحليلاً.
6. لجأ سيبويه إلى السياق المقامي لتحديد معانٍ حقيقية غير مباشرة في بعض الجمل، وهو ما يعرف في التداولية بالتضمين التقليدي الذي عرفه التداوليون بقولهم: (أن يعني المتكلم شيئاً فيما وراء معنى الجملة، دون لجوء إلى تقدير محذوف بعينه، ودون لجوء إلى التعبيرات المجازية). أو بعبارة أخرى: يُراد من التضمين معنى تداولي هو رَدْفٌ للمعنى اللغوي -على ألا يكون معنى مجازياً- ويتم تحديده من خلال السياق المقامي.
7. أكد سيبويه -في مواضع كثيرة من كتابه- أن علم المخاطب بالمعنى هو الذي يسوغ مجيء الكلام على الاتساع والاختصار. وهو بذلك المسلك يعتمد على وسيلتين من وسائل التأويل التداولي هما: التكميل، والتأويل المجازي. في حين أنه لم يشر أحد من التداوليين إلى إمكانية ورود بعض الجمل التي تحتاج إلى أكثر من وسيلة لفهمها.
8. أحياناً يضع سيبويه أمام المتلقي فرصة لتأويل الكلام تأويلاً آخر على غير الإحالة، وذلك إذا ما احتل الكلام ذلك التأويل. وهذا يؤكد تلك الفكرة التي أوردناها من أن المتلقي لا يلجأ إلى التخطئة إلا بعد أن يستنفد كل وسائل التأويل التداولي الأخرى.

## هوامش البحث

1. انظر: **النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي**، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص 255 (أفريقيا الشرق، المغرب، د. ت.).  
و: **علم الدلالة: السيماتنكية والبراجماتية في اللغة العربية**، د. شاهر الحسن، ص 157 (دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2001م).
- و: **التراكيب غير الصحيحة نحويًا في الكتاب لسيبويه: دراسة لغوية**، د. محمود سليمان ياقوت، ص 188 - 189 (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د. ت.).
2. **الدلالة وقيمة الصدق**، ستروسن، ضمن: المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة وتعليق: عبد القادر قنيني، ص 79 (أفريقيا الشرق، المغرب، 2000 م).
3. - See: Bach, K. *Speech Acts and Pragmatics*, P. 155. In: Michael, D. and Richard, H. (Philosophy of Language) Blackwell Publishing, USA, 2006.
4. - Grice, H. *Studies in way of Words*. P. 220, Harvard University Press, 1989.
5. - See: Gerard, T. *Lexiqua-Index du Kitab de Sibawayhi*  
نقلا عن: **أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه**، سارة عبد الله الخالدي، ص 11-12 (رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 2006 م).
6. **أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه**، ص 12.
7. **الكتاب**، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ج1 ص 439 (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988 م).
8. - See: Robert, J. *The Pragmatics of Non-sentences*, P. 266. In: Laurence, R. and Gregory, W. (The Handbook of Pragmatics), Blackwell Publishing.
9. - *Ibid*, P. 268
10. - Swan, M. *Grammar, Meaning, and Pragmatics: Sorting Out the Muddle*, P.4. Tesl-EJ, September, 2007, Volume 11, Number 2.
11. - See: Robert, J. *The Pragmatics of Non-sentences*, P. 268.

12. - See: *Ibid*, Pp. 273-274.
13. انظر في ذلك: *الدلالة والتععيد النحوي: دراسة في فكر سيبويه*، د. محمد سالم صالح، ص 385-431 (دار غريب، القاهرة، 2008 م).
14. *كتاب سيبويه* ج 1 ص 253.
15. *السابق* ج 2 ص 130.
16. *السابق* ج 2 ص 208.
17. *السابق* ج 1 ص 257.
18. *السابق* ج: 1 ص: 312.
19. - See: Roberts, C. *Context in Dynamic Interpretation*, Pp. 2 and 13. In: Horn and Ward, the Handbook of Pragmatics, Blackwell Publishing, 2002.
20. - *Ibid*, P. 13.
21. - *Ibid*, P. 1.
22. - Swan, M. *Grammar, Meaning, and Pragmatics: Sorting Out the Muddle*, P.6.
23. انظر: *النص والسياق*، ص 265.
24. - Bach, K. *Speech Acts and Pragmatics*, P. 160.
25. - *Ibid*, P. 147.
26. - *Ibid*, P. 156.
27. - *Ibid*, P. 156.
28. *علم الدلالة: السيماتيكية والبراجماتية في اللغة العربية*، ص 176.
29. *كتاب سيبويه*، ج 1 ص 311 - 312.
30. *السابق*، ج 2 ص 105.
31. - Bach, K. *Speech Acts and Pragmatics*, P. 163.
32. *كتاب سيبويه*، ج 2 ص 65-66.
33. *السابق* ج 2 ص 70.
34. *السابق*، الصفحة نفسها.
35. *السابق*، الصفحة نفسها. وتكفوني: أحاطوا بي.
36. *السابق*، ج 2 ص 73. وشغارة: ترفع رجلها ضاربة الفصيل عند الحلب لتمنعه الرضاع، تَقْدُ: تضرب بشدة، والفصيل: ولد الناقة، وفطارة: أي قابضة على الضرع بأطراف

- الأصابع، قوادم الأبيكار: أخلاف النوق التي نتجت أول بطن.  
37. **السابق**، ج 2 ص 74. وحوز الإبل: جمعها لللف، الرزامي: نسبة إلى رزام، والعواشي  
جمع (عاشية) وهي التي ترعى بالعشي.  
38. **السابق**، ج 1 ص 55.  
39. - Bach, K. *Speech Acts and Pragmatics*, P. 156.  
40. انظر: **النص والسياق**، ص 158، و 163.  
41. - Swan, M. *Grammar, Meaning, and Pragmatics: Sorting Out the Muddle*, P.3.  
42. **كتاب سيبويه** ج 2 ص 359 - 360.  
43. **السابق** ج 2 ص 360.  
44. انظر: **الكتاب**، ج 1 ص 25 - 26.  
45. - See: Bach, K. *Speech Acts and Pragmatics*, P. 155.  
46. - See: Robert, J. *The Pragmatics of Non-sentences*, P. 269.  
47. انظر: **العلاقات النحوية بين المفردات في الجملة ودورها في تشكيل المجاز**، محروس  
بريك، ص 39 - 45 (رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 2008 م).  
48. **الكتاب**، ج 1 ص 26.  
49. **النحو والدلالة**، د. محمد حماسة، ص 79 (دار الشروق، القاهرة، ط1، 2000م).  
50. **المحتسب**، ابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، ج 1 ص 176 (المجلس  
الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الجزء الأول 2004م).  
51. **السابق**، الصفحة نفسها، وانظر: **الخصائص**، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، ج 2  
ص 457 (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1999م)، وانظر: **العلاقات النحوية بين  
المفردات في الجملة ودورها في تشكيل المجاز**، ص 51.  
52. **سورة البقرة**، آية 171.  
53. **الكتاب**، ج 1 ص 212.  
54. - Roberts, C. *Context in Dynamic Interpretation*, P. 8.  
55. **الكتاب**، ج 1 ص 211.  
56. **السابق**، ج 1 ص 222.  
57. **التصوير الفني في القرآن**، سيد قطب، ص 42 (دار الشروق، القاهرة، ط16، 2002م).

58. سورة مريم، آية 42.  
59. سورة البقرة، آية 170.  
60. الكتاب، ج 1 ص 25.  
61. السابق، ج 1 ص 26.  
62. سورة النحل، آية 1.  
63. الكتاب، ج 1 ص 439.  
64. السابق ج 1 ص 435.  
65. Swan, M. *Grammar, Meaning, and Pragmatics: Sorting Out the Muddle*, P.5.

## المصادر والمراجع

### أولاً: المراجع العربية:

- أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبد الله الخالدي، (رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 2006 م).
- التراكيب غير الصحيحة نحويًا في الكتاب لسيبويه: دراسة لغوية، د. محمود سليمان ياقوت، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د. ت.).
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (دار الشروق، القاهرة، ط 16، 2002 م).
- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 4، 1999 م.
- الدلالة والتعقيد النحوي: دراسة في فكر سيبويه، د. محمد سالم صالح، (دار غريب، القاهرة، 2008 م).
- الدلالة وقيمة الصدق، ستروسن، ضمن: المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة وتعليق: عبد القادر قنيني، (أفريقيا الشرق، المغرب، 2000 م).
- العلاقات النحوية بين المفردات في الجملة ودورها في تشكيل المجاز، محروس بريك، (رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 2008 م).



- **علم الدلالة: السيماتيكية والبراجماتية في اللغة العربية**، د. شاهر الحسن، (دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2001م).
- **الكتاب**، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988 م).
- **المحتسب**، ابن جنى، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الجزء الأول 2004م.
- **النحو والدلالة**، د. محمد حماسة، (دار الشروق، القاهرة، ط1، 2000م).
- **النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي**، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، (أفريقيا الشرق، المغرب، د. ت.).

#### ثانيا: المراجع الأجنبية:

- Bach, K. **Speech Acts and Pragmatics**, In: Michael, D. and Richard, H. (Philosophy of Language) Blackwell Publishing, USA, 2006
- Grice, H. **Studies in way of Words**, Harvard University Press, 1989.
- Robert, J. **The Pragmatics of Non-sentences**, In: Laurence, R. and Gregory, W. (The Handbook of Pragmatics), Blackwell Publishing.
- Roberts, C. **Context in Dynamic Interpretation**, In: Horn and Ward, the Handbook of Pragmatics, Blackwell Publishing, 2002.
- Swan, M. **Grammar, Meaning, and Pragmatics: Sorting Out the Muddle**, Tesl-EJ, September, 2007, Volume 11, Number 2.